البيت التقليدي وعلاقته بالتنمية المستدامة: مدينة الزنتان أنموذجًا

د. سعد صالح عامر الحاج

كلية التربية الزنتان، جامعة الزنتان

drsaadalhaj@uoz.edu.ly

https://orcid.org/0009-0005-2020-2253

https://doi.org/10.5281/zenodo.19347698

المستخلص:

اعتنت الأنثربولوجيا الثقافية بدراسة الثقافة المادية باعتبارها جزءًا مِنَ الثَّقافة العامَّة للإنسان، كما اعتنتْ بالدراسات الَّتي تهتم بالذاكرة، وتتبع أهمية هذه الدراسات من خلال التَّجول بين صفحات الماضي ؛ للاستفادة منها في الحاضر، ولرسم الخطط للمستقبل كما تهدف الدراسة إلى تحليل ما تبقى من البيت التقليدي بمدينة الزنتان، ورصد الخصائص التَّشكيلية ومكونات البيت التقليدي، ومعرفة العوامل المؤثرة في شكل البيت التقليدي، والعلاقة بَيْنَ البيت التقليدي والتَّنمية المستدامة، من خلال المنهج الوصفي والفوتوغرافي، وقد توصلت الدراسة إلى أمرين مهمَّينِ:

ـ الأوَّل: رصد خصائص البيت التقليدي.

ـ الثَّاني: تحديد العلاقة بين البيت التقليدي وأبعاد التنمية المستدامة، البعد الفكري والمعرفي، البعد الإنساني (البشري)، البعد الاجتماعي والثقافي، البعد البيئي والاقتصادي، البعد الهندسي والإنشائي.

الكلمات المفتاحية: البيت التقليدي، التنمية المستدامة.

Abstract:

Cultural anthropology has focused on studying material culture as part of human culture in general, as well as studies concerned with memory. The importance of these studies stems from exploring the past to learn from it in the present and to plan for the future. This study aims to analyze what remains of the traditional house in the

city of Zintan, to identify the structural characteristics and components of the traditional house, to understand the factors influencing its form, and to explore the relationship between the traditional house and sustainable development, using descriptive and photographic methods. The study has reached two important conclusions:

First: Identifying the characteristics of the traditional house.

Second: Determining the relationship between the traditional house and the dimensions of sustainable development: the intellectual and cognitive dimension, the human dimension, the social and cultural dimension, the environmental and economic dimension, and the engineering and construction dimension.

Keywords: Traditional house, sustainable development.

المقدمة:

قال تعالى: ﴿وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنْ الْجِبَالِ بُيُوتاً آمِنِينَ﴾[الآية:82 من سورة الحجر].

قال تعالى: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنْ الْجِبَالِ بُيُوتاً فَارِهِينَ﴾ [الآية:149 من سورة الشعراء].

تعتني الأنثروبولوجيا الثقافية بدراسة الثقافة المعنوية والمادية للإنسان والمنقولة اجتماعياً من خلال وسائل التنشئة الاجتماعية، والمتمثلة في المثلث البيوثقافي، أي علاقة الإنسان بالبيئة وعلاقة الإنسان بالإنسان، أي تفاعل الإنسان مع البيئة في بناء مسكنه، وملابسه، ونوع طعامه، ومع أخيه الإنسان في تفاعله وعلاقاته الاجتماعية وعاداته وتقاليده وقيمه.

وعلى الرغم من التطورات التكنولوجية والتقنية والمعلوماتية إلَّا أَنَّ العالمَ زاد اهتمامه بالتُّراث المادي بصفةٍ عامَّةٍ والتُّراث المعماري بصفةٍ خَاصَّةٍ، باعتباره الرابط بين الماضي والحاضر والمستقبل للمجتمع، ومرآة تعكس أصالة السلف ونضالهم وكفاحهم وتضحياتهم وتكيفهم من أجل سعادة الْخَلفِ، والمتأمل للبيوت التقليدية لا ينظر لها على أَنَّها حُفَر في الجبال أو في هضاب الطين، أو هياكل من الجبس والحجارة ،بلْ

إنَّها كتابُ تاريخٍ مُسَطَّرٍ بقصص الفرح والسعادة، والحزن والْألآم ، في كلّ زاويةِ بيتٍ (داموس) وفي كلّ حجارة دروس وعبر، ومواقف وعلاقات، وسهر وسمر، بيوت كانت عامرة بأهلها وأفكارهم وقصصهم وحكايتهم، اليوم أصبحت هياكلَ موحشةً ، ومن ذلك جاءت أهمية هذه الدراسة وكما يقول الشاعر:

يا طارق البابِ رفقاً حين تطرقهُ ... فإنّه لم يعد في الدار أصحابُ

لا تسألِ الدارَ عنْ من كان يسكُنها ... البابُ يُخبرُ أن القوم قد رحلوا

تفرقوا في دروبِ الأرض وانتثروا ... كأنه لم يكن أنسٌ وَأحبـــابُ

ارحم يديك فما في الدارِ من أحدٍ ... لا ترجُ رداً فأهلُ الودِ قد راحوا

وَلترحم الدار لا تُوقظ مواجعها ... للدور روحٌ كما للناس أرواحُ

المتأمل في البيت التقليدي والَّذي أصبح من التُّراث بمدينة الزنتان ويتعرض للإزالة والهدم والاندثار والتَّلف مِنْ قِبْلَ الإنسان والظُّروف الطبيعية، ينبهر ويعجب مِمَّا يشاهده مِنْ إبداع في التصميم، وجهد في الحفر، وفن في التخطيط رغم عدم وجود كليات للهندسة ولا مهندسين وقلَّة الإمكانيات المتاحة لأجدادنا، بل هي الفطرة الَّتي فَطَرَ اللهُ النَّاسَ عليها من حكمةٍ وفَهْمٍ وعَقْلٍ وتَدَبُّرٍ وتدبير، فالإنسان مبدعٌ في كلِّ زمان ومكان، وهذا ما هدفت الدراسة إلى تحقيقه.

إنَّ البيئة الطبيعية والثقافية لمنطقة الجبل الغربي عامَّةً والزنتان خاصَّةً باعتبارها منطقة صخرية طينية جعل سكانها يقدمون على حفر البيوت تحت الأرض لكي تتكيف مع الظروف المناخية بالمنطقة والتي تعَدُّ باردةً شتاءً، حَيْثُ تصلُ درجاتُ الحرارة درجةَ الصِّفر، وحارة صيفاً، أَمَّا مِنْ حَيْثُ التَّصميمُ فكانت وفق الظّروف الاجتماعية والاقتصادية والعائلية الَّتي يعيشها أفرادُ المجتمع، والنشاط الَّذي يمارسونه، والإمكانيات البيئية المتاحة.

ولتناول الموضوع بموضوعية لا نريد الوقوع في الإغلاق بنشوة الفخر بالماضي ومدحه والاعتزاز به ولكن من واجبنا عرض الإبداع الإنساني في تلك الحقبة الزمنية والتواصل مع التاريخ وعدم الانقطاع عنه، وعلى الرغم من ظهور مصطلح التنمية المستدامة وأبعادها المختلفة حديثاً ، فالأعمال والأفكار والشَّواهد الَّتي كانت سائدةً تدلُّ على وجود هذا المصطلح بعقل الإنسان وفكره، فقد حافظ البيت التقليدي على حياة

البشر وحمايتهم، كما حافظ على العادات والتقاليد والقيم، والعلاقات الاجتماعية، وحَقَّقَ الضَّبطَ الاجتماعي.

ووفقاً لذلك هدف الباحث من خلال هذه الدراسة إلى طرح موضوع (البيت التقليدي وعلاقته بالتنمية المستدامة) من وجهة نظر ومنهجية أنثروبولوجية متناولاً الموضوعات الآتية:

ـ **أولا**: التَّعريف بموضوع البحث، وبيان أهميته ومبررات اختياره.

ـ **ثانياً:** مفاهيم البحث، وأهدافه.

ـ **ثالثاً:** تساؤلات البحث ومنهجيته.

ـ **رابعًا:** المدخل النظري للبحث، التوصيات والمقترحات، المراجع.

ـ أولاً: التعريف بموضوع البحث:

ينظر إلى الثقافة الشعبية على أنَّها خلاصةُ الفكر الشعبي للجماعات الَّتي تعيش في مكان ما وينتج عن احتكاكها مع بعضها لون من الإبداع المتعدد في مجالاته والأنواع الدَّالة عليه. وبذلك تؤسسُ للثقافة الشعبية مجموعة من الخصائص والصِّفات الَّتي تحدد للإنسان نوعًا متميزاً مِنَ السُّلوك الَّذي يقوم على مجموعة من القيم والمُثُلِ والمقومات، يَرِثُها ويتمسك بها ويحرص عليها، ويجعل منها هوية له، يعبر من خلالها على صلته بالمكان وما يستمده منه من خبرات وقيم وسلوك.

وتعد الثقافة المادية جزءاً من الثقافة العامَّة إذْ هي صدى لمهاراتٍ ووصفاتٍ انتقلتْ عَبَرَ الأجيال وخضعت لقوى التقليد المحافظة عليها. كما تُعَرَّف الثقافة المادية بأَنَّها: (الشَّيءُ الملموس والمحسوس بوجه عامٍّ أو بمعنى آخر هي تحويل المادة الخام إلى شكلٍ محدّدٍ يخدم غرضاً لدى الإنسان. (الزركاني، 2014: ص170)

ومن هنا جاء اعتناء الأنثروبولوجيا بدراسة المسكن، حيث إنَّه لا يتمُّ بناءُ المسكنِ بشكل عشوائي ولكنَّه يتمُّ وِفْقًا للثقافة الخاصَّة بالمجتمع وللتعبير عن المعاني الخاصة بتلك الثقافة.

ولذلك قد كان المسكن من الموضوعات المهمَّة الَّتي كانت ومازالت محور دراسة علماء الأنثروبولوجيا، وخاصَّةً أَنَّ المسكن يمثل أهميةً كبيرةً في دراسة ثقافة الشعوب باعتبار أَنَّ المسكن هو الجانب المادي من ثقافة تلك الشعوب.

وقد اعتنى الأنثروبولوجيون في دراستهم بالمسكن باعتباره محور للوظائف الاجتماعية للأفراد ويرتبط مباشرة بنظام القرابة والمصاهرة، وله أثره في شبكة العلاقات الاجتماعية وخاصة علاقات القرابة، وتستفيض الدراسات الأنثروبولوجية الاجتماعية خاصة في دراستها للمجتمعات البدائية في وصف وتصنيف النظم المختلفة في المسكن والإقامة بعد الزواج.(عفيفي، 2022، ص159)

ومن هنا اجتهد الباحث في هذا البحث للكشف عن موضوع (البيت التقليدي وعلاقته بالتنمية المستدامة) مستعيناً باطلاعه على المنشورات والمؤلفات، وملاحظاته وتعايشه بمجتمع الدراسة.

ثانياً: أهمية البحث ومبررات اختياره:

1- يستمد البحث أهميته من الاهتمام بالبيت التقليدي المعرض للاندثار، وهجر السكان له، وكشاهد وأداة للتعبير عن جزءٍ من ثقافة المجتمع الليبي.

2- يعدُّ موضوع البيت أو السكن من الموضوعات المهمَّة بالانثروبولوجيا الثقافية لارتباطه بالثقافة المادية.

3- تأتي أهمية البحث من دور البيت التقليدي في الوظائف الاجتماعية وعلاقات القرابة والجوانب الاقتصادية.

4- تنبع أهمية البحث من أحياء وتوثيق وتأصيل وحفظ هوية ثقافية، وعمارة تقليدية ارتبطت بالبيئة المحلية لمنطقة الزنتان، وكذلك الاهتمام بالتنمية المستدامة.

5- يبرز البحث جهود الأجداد وما قدموه من أجل الأحفاد، حيث تتجلى التنمية المستدامة في كلِّ أبعادِها البشرية، والبيئية، والاجتماعية، والاقتصادية، والإنسانية.

6- للبحث أهمية تطبيقية من خلال النتائج الَّتي سيتم الوصول إليها، والتوصيات والمقترحات.

ثالثاً- مفاهيم البحث:

1-المسكن (البيت) التقليدي: المساكن هي: (محلات الإقامة التي تهيأ للناس في مجتمع معين، ويعتبر المسكن من أهم العوامل الَّتي تؤّمنُ استمرارَ الحياة الاجتماعية وكذلك أهم أشكال الثقافة المادية).(شعبان، 2004: ص104).

البيت التقليدي: هو: (البيت القديم الَّذي تتميز عمارته بطابعٍ معماريٍّ خاصٍّ يتناسبُ مع مقوماتِ وإمكانياتِ تِلْكَ المرحلة، ويتفرَّدُ باعتماد أهله الكلي على الموارد البيئية الموجودة في المكان، ولم يتأثر بأي مؤثرات خارجية، وفي كونها نمطاً معمارياً مندثراً).(الثقفي، 2021: ص2400)

الداموس هو: (مصطلح يُستخدم للإشارة إلى الغرف أو السراديب المدفونة تحت الأرض في مناطق جبلية صخرية الَّتي كانت تُستخدمُ في العصور القديمة لأغراضٍ متنوعةٍ، من بينها الدفن أو التخزين أو حتى العبادة.

يتميز الداموس بأنَّه مكان محفورٌ في الصُّخور أو التُّراب، وغالبًا ما يكون مغلقًا بإحكام للحفاظ على محتوياته. ويُعتقدُ أَنَّ الدواميسَ قد اُسْتُخْدِمَتْ بشكلٍ واسع في الحضارات الرُّومانية واليونانية والبيزنطية).

(https://www.facebook.com/alkhabirmed/posts، 2025)

3- التنمية المستدامة: تعرف التنمية المستدامة: بأنَّها(قيام الأجيال الحالية من البشر بالعمل على توفير حاجاتها في الحاضر دون التغافل عن المستقبل، بالحرص عن عدم استنزاف الثَّروات الطبيعية، وادخار نصيب أكبر منها للغد، مع بدل أقصى جهد على عدم تلويث البيئة بدرجة تجعل من المستحيل على أجيال المستقبل أَنْ تباشرَ الحياة بالمستوى الَّذي نعمت به الأجيال السابقة). (النجار، 2001: ص137).

رابعاً- أهداف البحث: يمكن تلخيص هذه الأهداف في الآتي:

الهدف العام:

1- تحليل ما تبقى من البيت التقليدي بمدينة الزنتان.

2- رصد الخصائص التشكيلية ومكونات البيت التقليدي بمدينة الزنتان .

3- معرفة العوامل المؤثرة في شكل البيت التقليدي بمدينة الزنتان.

4- معرفة العلاقة بين البيت التقليدي والتنمية المستدامة.

خامساً- تساؤلات البحث: وقد تمت صياغة عدة تساؤلات على النحو الآتي:

1- ما البيت التقليدي بمدينة الزنتان وعلاقته بالتنمية المستدامة؟

2- ما الخصائص التشكيلية ومكونات البيت التقليدي بمدينة الزنتان ؟

3- ما العوامل المؤثرة في شكل البيت التقليدي بمدينة الزنتان ؟

4- ما العلاقة بين البيت التقليدي والتنمية المستدامة ؟

سادساً- منهج البحث. اعتمد الباحث في هذا البحث على المنهج الوصفي التحليلي الَّذي يهدف إلى وصف الظَّاهرة في الوقت الحالي. كذلك استخدم الباحث المنهج الفوتوغرافي لتحقيق أهداف بحثه.

سابعاً- المدخل النظري للبحث:

1- النظريات والمدارس الفكرية المرتبطة بالبحث: مدرسة الرواسب الثقافية. تأخذ هذه المدرسة بفكرة البقايا والمخلفات باعتبارها شواهد من النَّاحية المنطقية وانطلاقاً من أنّ هذا المجتمع موضوع الدراسة، قد مرّ أصلاً بمراحل أقل تطوراً ثمّ تقدم إلى مراحل أكثر تركيباً. (بوشعيرة، غباري، 2015: ص21)

تشير كلمة الرواسب أو البقايا. من بقي يبقى بقاء وبقي بقايا وأبقاه واستبقاه ... مثل الرعوي والرعايا من الارعاء على الشيء .وهو الإبقاء عليه ويشير كذلك مصطلح الرواسب في العلوم الطبيعية إلى الأتربة وغيرها من مواد القشرة الأرضية تحملها السيول والأنهار إلى المنخفضات والبحار والأنهار فترسب طبقات فيها، ويقال لها أيضا (الرسوبيات والمواد الرسوبيَّة). من خلال هذه التعريفات يتضح أنَّ مصطلح الرواسب يطلق على بقايا الأشياء الَّتي تنتقل من مكان إلى آخر أو من مرحلة زمنية إلى أخرى بغضِّ النَّظر عن طبيعتها سواء كانت مادية أو غير مادية.

وقد ميَّز بعضهم مصطلحَ الرواسب حسب مجال استخداماته، فنجد أَنَّه له ثلاثة معاني :أَوَّلُها هو الاستخدام الشائع للمصطلح والَّذي يشير إلى استمرار الحياة، أمَّا الاستخدام الثَّاني فهو الَّذي يرتبط بالجانب البيولوجي الفني فيشير إلى الأنواع المرتبطة بفكرة الانتخاب الطبيعي والبقاء للأصلح، أمَّا الاستخدام الثالث فهو مرتبط بالجانب المتعلق بمجال الانثروبولوجيا وعلم الاجتماع والَّذي يقصد به استمرار بعض عناصر الثقافة كالعادات والتقاليد والأفكار... الخ ، كمخلفات أو رواسب ثقافية من الماضي.

لقد عرف وينيك الرواسب الثقافية بأنَّها: (بقايا عصر سالف مازالت موجودة في الثقافة المعاصرة). ويعرفها تايلور بأنَّها: (تلك العمليات الذهنية، والأفكار، والعادات، وأنماط السلوك، والآراء، والمعتقدات القديمة الَّتي كانت سائدة في المجتمع في وقت من الأوقات، والَّتي لا يزال المجتمع يحافظ عليها ويتمسك بها، بَعْدَ أَنْ انتقل

من حالته القديمة إلى حالةٍ جديدة تختلف فيها الظُّروفُ كُلَّ الاختلاف عمَّا كانت عليه في الحالة الأولى الَّتي أَدَّتْ في الأصل إلى ظهور تلك الأفكار والعادات والمعتقدات). ويعتقد تايلور أَنَّ أهم ما يميز هذه المخلفات الثقافية هو فقدانها لوظيفتها وفائدتها ومعناها.

من خلال هذا الطَّرح لمفهوم الرواسب الثقافية تتضح لنا أَنَّ الرواسب الثقافية هي جملة من العناصر والأشكال الثقافية المتمثلة في بعض السِّمات أو المركَّبات الثَّقافية الَّتي نشأتْ في مرحلة زمنية سابقة، وفي ظروف اجتماعية معينة، ومن ثم انتقلت من أجيال قديمة إلى أجيال جديدة عن طريق النواقل الثقافية المعروفة، كالتنشئة الأسرية والاجتماعية والتكاثف والأساطير... الخ، ويتضح من خلال التَّعريف الَّذي قدَّمه تايلور أَنَّ هذه العناصر أو السمات الثقافية أصبحت بدون فائدة في ظلِّ معطيات الجيل الجديد. (ناجي، 2019: ص240)

2- الدراسات السابقة:

أولاً- الدراسات المحلية:

1- **دراسة المليان (2018م) بعنوان: (تأثير البيئة والملوثات على بيوت الحفر في غريان).** هدفت الدراسة إلى توعية السكان بمخاطر التلوث البيئي على المعالم الأثرية، وبَيَّنَتِ الدِّراسة أَنَّ مدينة غريان تضمُّ العديدَ من المباني والمواقع الأثرية العائدة للفترة الرومانية والإسلامية والعثمانية والإيطالية، والَّتي من أبرزها بيوت الحفر الَّتي يرجع عمرها لقرون عديدة، وأَنَّ هذه البيوت تمثل مرحلة من مراحل تطور المساكن بمدينة غريان، ورغم ذلك فإنَّ هذه المساكن أصبحت بؤرةً للتَّلوث البيئي ومكباً للنفايات والقمامة، وناقشت الدراسة تأثير التغيرات المناخية والملوثات البيئية على هذه البيوت، وخلصت الدراسة إلى أنَّ بيوت الحفر بمنطقة الدراسة تمثل حالة من الاستغلال الأمثل لإمكانيات البيئة الطبيعية وأنَّها تتعرض لأخطار التلوث البيئي الطبيعي والبشري اللذين أَثَّـرا عليها كثيراً، وأوصتِ الدراسة بضرورة إيجاد برنامج حكومي شامل ومتكامل لترميم وصيانة هذا النوع من التراث الإنساني.

2-دراسة صالح (2018م) بعنوان: (دراسة المساكن التقليدية بالجماهيرية الليبية مع تطوير مساكن الحفر في الجبل الغربي)، حيث تمت دراسة وتحليل المساكن التقليدية (بيوت الحفر) والعوامل المحيطة والمؤثرة في المساكن بليبيا بغية الوصول إلى أفضل المساكن ملائمة للأسر الليبية، حيث تناولت الدراسة بالدراسة والتحليل أسبابَ إهمال

مساكن الحفر التقليدية في الإقليم الجبلي واستبدالها بالمساكن المبنية فوق الأرض وأسباب عدم تطويرها بالرغم من دورها المهم خصوصاً في حماية الأسرة بالإقليم من كثير من المخاطر الأمنية والتقلبات الجوية وغيرها الأخطار، واقترحت الدارسة نماذجًا عصرية لبيوت الحفر القديمة تواكب العصر ولا تخل بالتُّراث المعماري الموروث، وأوصت الدراسة بضرورة دراسة وتطوير المساكن التقليدية وخصوصاً بيوت الحفر بالإقليم الجبلي والاستفادة، من خصائصها البيئية المميزة وتكلفتها الاقتصادية البسيطة وارتباطها بالأصالة والشخصية الليبية(سعد، 2025: ص340).

- **دراسة ابتسام عمر الضبيع** (2021م) بعنوان (التراث العمراني كنوز تستدعي الاهتمام والدراسة(بيوت الحفر في مدينة غريان أنموذجاً) هدفت الدراسة إلى التعريف بالتُّراث العمراني والثقافي في مدينة غريان المتمثل في بيوت الحفر، والتعرف على مادة بناء بيوت الحفر ومدى ملائمتها للظروف المناخية السائدة في المنطقة، تشجيع فئات المجتمع المختلفة على السياحة الداخلية من خلال المحافظة على التُّراث العمراني بالمنطقة.

وأوضحت الدِّراسة من خلال تناول التُّراث العمراني وزيارة بيوت الحفر خاصة الآتي:

1- تعرض بيوت الحفر للتدمير والتشويه.

2- العوامل الطبيعية، والبشرية، والاجتماعية، والاقتصادية تمثل تحدياً يواجه التراث العمراني خاصة بيوت الحفر.

3- غياب الوعي بأهمية هذا التراث.

4- الترميم العشوائي غير المدروس للأبنية من قبل أصحابها.

5- عدم وجود حصر للمباني التراثية في المدينة.

6- إنَّ التُّراث الثَّقافي والتنوع في الثقافات والمجتمعات هما من أهم عوامل الجذب السياحي.(الضبيع، 2021: ص132).

3- دراسة اللباد (2023م) بعنوان:(تنمية المعالم التاريخية في مدينة الأصابعة(قصر المعلق وحوش الحفر دراسة في الجغرافيا السياحية)، هدفت الدراسة لدراسة واقع المعالم التاريخية بمدينة الأصابعة ومحاولة استغلال هذه الثروة التاريخية في صناعة السياحة الداخلية مع أهمية وضع خطط لتطوير وتحسين وتنمية المعالم التاريخية

بالمدينة، وخلصت الدراسة إلى أَنَّ بيوت الحفر بالمنطقة مازالت بوضع جيد رغم عدم اهتمام جهات الاختصاص بها، كذلك عدم وجود برامج توعوية تبين الأهمية الكبيرة لهذه المعالم من الناحيتين التاريخية والسياحية، وأوصت الدراسة بضرورة الاهتمام بهذه المعالم والمحافظة عليها لأنها تمثل ثروة لا تقدر بثمن، وتشجيع الدراسات بهذا الجانب وأهمية توثيق المباني التراثية والتاريخية واستخدامها كمعالم سياحية.

4- دراسة علي منصور علي سعد (2025م) (أثر العامل الطبوغرافي في تطور أنماط السكن بإقليم الجبل الغربي (مدينة الزنتان نموذجاً). هدفت هذه الورقة لدراسة أهم العوامل الَّتي أثرت في تطور أنماط السكن بمدينة الزنتان، وبالأخص العامل الطبوغرافي الَّذي اتَّضح أَنَّ له أَثَـــراً واضحاً في التأثير على أنماط السكن بالمنطقة، فقد أسهمت طبوغرافية المنطقة وموارد البيئة الطبيعية والحالة الاقتصادية للسكان في تطور أنماط السكن بمدينة الزنتان، كما اتَّضح من الدراسة الميدانية أَنَّ أنماط السكن بمنطقة الدراسة قد تطورت عبر السنين من مساكن حفر تحت الأرض (غار أو داموس) في عهد الآباء والأجداد(العهد التركي وما قبله)، إلى مساكن أحدث منها أو ما اصطلح على تسميته بالمسكن العربي خلال النصف الثاني من القرن الماضي، ثم مساكن حديثة ذات نمط غربي أوروبي في الوقت الحاضر. (سعد، 2025: ص ص340-333).

ثانياً- الدراسات العربية:

1- دراسة عبد الله زاهر الثقفي بعنوان (عمارة المنزل التقليدي في بلاد ثقيف دارسة وصفية توثيقية)(2021). هدفت الدراسة إلى رصد وتوثيق العمارة التقليدية في بلاد ثقيف الواقعة جنوب محافظة الطائف، واعتبارها هوية ثقافية، وكذلك تنمية الفكر التراثي وتعزيز الشعور بقيمة النتاج المحلي المتفرد، وإدراك قيمة الأعمال الفنية التي نفذها الأجداد.

- بَرَعَ بعضُ أهالي المنطقة في بناء المساكن وكانوا على دراية كاملة باختيار أفضل المواقع للبناء وبتخطيطها ضمن الإمكانيات المتوفرة.

- اقتصرت المواد المستخدمة في البناء على تلك الموجودة في البيئة.(الثقفي، 2021: ص2400).

2- دراسة رانية غناي بعنوان المسكن التقليدي بقصر غرداية وقصر بريان دراسة تحليلية مقارنة) (2021). هدفت الدراسة إلى التعرف على فاعلية المسكن وتحديد

وظائفه وطابعه المعماري الفريد، وتخطيطها تبدو جميعا بساطة في الحجم وتناسق وانسجام، وتعتبر المساكن الخلايا الرئيسة المكونة لنسيج المدن فهي تشترك مهما كان حجمها في عناصر أساسية تختلف اختلافًا طفيفاً بَيْنَ المساكن، تأتي هذه الدراسة للوقوف على كل هذا إلى جانب هذا التطرق إلى أهم خصائص للمسكن التقليدي بقصور غرداية وبريان وتحديد أهم العناصر المعمارية.

فالمسكن التقليدي في المنطقتين بمثابة فضاء كبير له نظام خاص تخضع له كل الأسر بحيث ينسجمون فيه معا ويشكلون أسرة واحدة وموحدة، وقد صمّم هذا المسكن من قبل أفراده على نحو يستجيب لحاجات التقليدية للأسرة ويحميها من كل أنواع المخاطر الخارجية، كما يلعب دوراً مهمًّا في التّماسك الأسري و تقوية العلاقات الاجتماعية محققا بذلك الأمان الاجتماعي ومحافظاً على قدسية الحياة الاجتماعية فيه مشكلًا عنصر ربط وهمزة وصل بين أعضائها ووحدة أساسية في استمرار وتماسك شبكة العلاقات ورغم كل التغير الحاصل في الحيز المساكن الذي فرض على الأسرة إلّا أنّه بقي متمسكة بقيمه وتقاليده. (غناي، 2021).

3- دراسة محمد مسعد إمام عفيفى بعنوان (المسكن التقليدي بمنطقة المحس بالسوادن دراسة أنثرويولوجية)(2022). يتميز المسكن التقليدي بمنطقة المحس بالولاية الشِّمالية بالطابع المعماري المنبثق من البيئة الطبيعية المحيطة به، حيث تعَدُّ خليطاً من البيئة الصحراوية والبيئة النيلية، لأنَّها تقع على ضفاف نهر النيل ويحيط بها الجبال والمرتفعات من الجانب الآخر، وهذا ما كان له الأثر البالغ في رسم تصميمات بيئية للمسكن في تلك المنطقة.(عفيفي، 2022: ص158).

4- دراسة هاني أحمد محمد القليوبى بعنوان (**سمات عمارة المسكن التقليدي في بلاد الجريد التونسي "تطبقاً على نموذج سكنى من مدينة نفطة)(2022).** يتناول البحث سمات عمارة المسكن التقليدي بمدينة نفطة الواقعة في واحات الجريد التونسى جنوب غرب البلاد التونسية والَّتي تتبع ولاية توزر إدارياً، ويشتمل البحث على مقدمة عامة عن المسكن التقليدي وتوضيح الموقع الجغرافي لإقليم واحات الجريد وتأثير هذا الموقع على عمارة المسكن، ثمَّ تطرقت للحديث عن سمات عمارة المسكن وذلك في ضوء ثلاثة سمات رئيسية: مكونات عمارة المسكن التقليدي، مواد البناء وتقنيات البناء، العناصر الزخرفية.

وقد مكننا البحث في تلك العمارة بتصنيفها ضمن ما اصطلح على تسميته بالمعمار المحلى، فهوية عمارة الجريد هي نتاج لموروث محلى في عناصره الزخرفية كما مثَّلتِ المحلية روح شخصيتها من خلال الاعتماد على مواد البناء المحلية مثل الآجر والطوب وخشب النخيل ، كما مثَّلت البساطة في عمارة المسكن الجريد أهمّ الخصوصيات المعمارية الَّتي ظهرت على المعمار التقليدي بمنطقة الجريد التونسي. (القليوبي، 2022: ص268).

3- البيت التقليدي: مُنْذُ ظهور الإنسان على سطح الأرض وهو يبحث عن مكان يلجأ إليه ؛ لِيَضْمِنَ له الأمانَ مِنْ قساوةِ الطبيعة وخطر افتراس الحيوانات فلجأ إلى الكهوف والمغارات، ثمَّ الأكواخ الَّتي طورها الإنسان مع مرور الوقت، فكَوَّنَ مسكنًا خاصًّا به، وبعدها أُنْشِئَتْ تجمعات سكنية متنوعة في قرى متفرقة، ثُـمَّ تَحَوَّلَت إلى مدن كبرى.

إذ يُعَدُّ المسكن البناء الدائم الّذي يضمن للإنسان المأوى لمدة زمنية معينة وطويلة في نفس الوقت، وتتداول عليه عدة أجيال، ومن خلاله يمكن لنا معرفة العادات والتقاليد التي مر بها الإنسان على حساب الزمن الَّذي قضاه في ذلك المسكن، إذ هو عبارة عن عدَّة غُـرُفٍ متَّصلة بعضها ببعض تؤّلف لنا وحدة سكنية ضمن بناء كبير، ويحتمي فيه الإنسان كيفما كان شكله ونمطه، وبهذا فالمسكن بمفهومه العام هو كلُّ دَارٍ حضري من حجر أو آجر أو خشب، وكّل خيمة بدوية من جلد أو صوف أو وبر. مصدقاً لقوله تعالى:(**والله جعل لكم من بيوتكم سكنا، وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ومن أصوافها و أوبارها و أشعارها أثاثا و متاعا إلى حين**). سورة النحل، الآية 80. (فؤاد، 2014: ص 257)

إنَّ العمارة أو ما يسَمَّى الفضاء المحصور أقدم وأهم الأنشطة الَّتي مارسها الإنسان مُنْذُ وجوده على الأرض، وهي انعكاس حقيقي لأساليب وحياة النَّاس الشَّخصية والعامَّة ومدى رقيهم وترتبط بعوامل اجتماعية واقتصادية وبيئية. (العليان، ب س ن: ص9).

ومن الصعب فهم الإطار المادي (المسكن) للبيئة بعيداً عن الخبرات الإنسانية والنظام الاجتماعي الَّذي يتواجد بداخله الإنسان، فالأطر أو الأنساق المادية تمثل ما هو أكثر من مجرد مجال للسلوكيات المختلفة الَّتي تصدر عن أعضاءِ المجتمع، فهي مكوناتٌ فاعلةٌ لهذا السلوك بالإضافة إلى ذلك وما يعدُّ أكثر أهميةً أنَّ هذه الأُطـرَ الماديَّةَ تعبّرُ عَنِ الثقافات بعينها ولقيم هذه الثقافات، وهذه التعبيرات تتخذ أشكالاً مختلفة تؤثر

على نواحي عديدة لهذه الأطـر فيما يشمل كل من تصميمها ووظائفها والمعاني التي تنقلها.

ولقد التجأ الإنسان منذ بدء الخليقة إلى الكهوف الطبيعية ليستخدمها كمأوى وملجأ من تقلبات الطبيعة أو لحماية نفسه من الحيوانات المفترسة وبعد اكتشافه النار ساعدته على توفير الحماية له من الحيوانات المفترسة.

وقد دلت الدراسات الأثرية التي أجريت في العديد من الكهوف المنتشرة في ليبيا وغيرها من البلاد باستخدام الإنسان لتلك الكهوف وخير مثال على ذلك كهف (هوا افطيح) الَّذي يقع إلى شرق مدينة سوسة بالجبل الأخضر بليبيا بنحو 12 كم الذي قام البروفيسور ماكبرنى بإجراء دراسة به سنة 1949 واكتشف من خلال الحفريات الَّتي أُجْرِيَتْ بهذا الكهف أنَّ الإنسانَ قد استخدمه منذ مرحلة لا تقل عن 80,000 سنة مضت.

وتنتشر بمنطقة جبل نفوسة الكثير من الكهوف الطبيعية والَّتي لا شك في أَنَّها أُسْتُعْمِلَتْ في مراحلَ قديمة كمساكن. كما أَنَّ الإنسانَ قَامَ بحفر كهوف وبيوت وملاجئ وقد تعددت أغراض استعمالات هذه المنشآت الَّتي أوجدها الإنسان ويمكن تلخيصها في الآتي:

1- لأغراض دينية، يمارس فيها الإنسان الطقوس الدينية سرًّا بعيدًا عن أَعْيُنِ سلطاتِ الدّولة الَّتي لا تعترف بذلك الدين ، ومثال على ذلك الديناميس (الكاتاكومب) بقرقارش والتي مارس فيها بعض الأهالي طقوس الديانة المسيحية بعيدا عن أعين السلطات الرومانية الوثنية أو كهف القديس مرقس الإنجيلي بالجبل الأخضر.

2- أغراض عسكرية، يتحصن به الأفراد لحماية أنفسهم من هجمات الأعداء، وتوفر لهم الأمن والحماية في فترات الفتن والاضطرابات ومثال على ذلك الكهوف المعلقة في الجبليين نفوسة والأخضر بليبيا.(حامد، 2015).

ويعدُّ (داموس العشرة) ضريحًا أو موقعَ دَفْنٍ يقعُ في مدينة الزنتان، ليبيا، حيث تَـمَّ دفن عشرة من خيرة رجالات المدينة الَّذين أعدمتهم القوات الإيطالية. أصبح هذا المكان رمزاً للتضحية، ويُضرب به المثل في الزنتان لدرجة أنَّ القول المأثور هو (موتك في العشرة كرامة).

الحدث التاريخي: تَـمَّ إعدامُ هؤلاءِ الرجال رمياً بالرصاص في بداية القرن الماضي على يَـدِّ المحتل الإيطالي، وذلك بتهمة مساعدة المجاهدين ودعمهم.

الدلالة والمعنى: تُعتبر تضحيتهم مضرب الأمثال في المدينة، حيث أصبحوا رمزاً للشجاعة والكرامة.

الدلالة الرمزية: يُعتقد أنَّ كلمة "داموس" قد تشير إلى موقع دفن أو بناء ذي طبيعة خاصة، وفي هذه الحالة هو ضريح يضم رفات عشرة شهداء. (https://www.facebook.com/banisalemgroup/photos).

كما تـمَّ الالتجاء إلى الدواميس خلال الأحداث 2011 الَّتي شهدتها الزنتان خاصة وليبيا عامة لحماية الأطفال والشيوخ والنساء من قصف صواريخ الجراد.

الصورة رقم (1) توضح ضريح داموس الشهداء العشرة

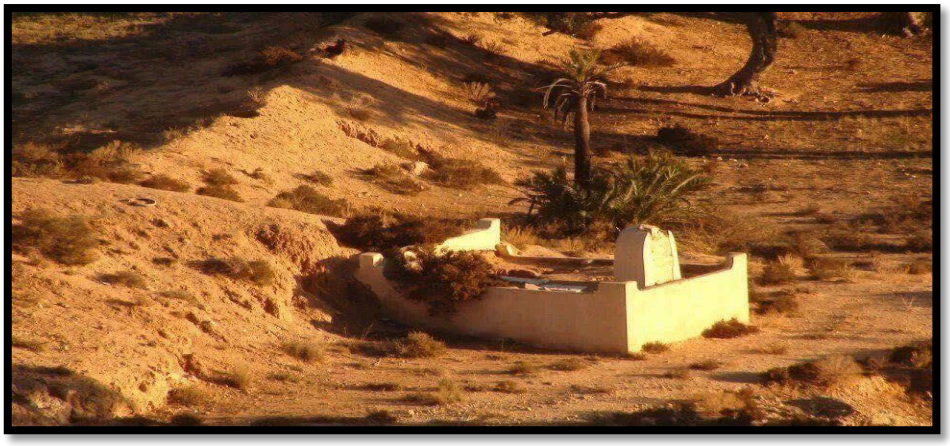

المصدر: https://www.google.com/search?q

3- أغراض مدنية، تستعمل كبيوت ومساكن إذ توفر فراغات معيشة للأسر التي تقطن بها.

4- أغراض تخزين، إذ يتم بها حفظ بعض المحاصيل الزراعية كالقمح والشعير وزيت الزيتون وغيرها.

5- كمأوى للحيوانات: تستخدم كمأوى ليلي للحيوانات كالأغنام والماعز لحمايتها من الحيوانات المفترسة. (حامد، 2015).

العوامل المؤثرة في بناء المسكن:

1- العوامل الطبيعية التي تؤثر في بناء المسكن: تلعب البيئة دوراً مهمًّا في تشكيل حياة الإنسان حَيْثُ يمارس الإنسان نشاطه فيها، ومن خلال هذه البيئة والمشتملة على

العديد من المقومات مثل الأرض التي تعيش عليها، وما تحويه من موارد طبيعية مهمَّة ، مِثْـلُ الأنهار والأشجار، ولذلك لها دور كبير في تحديد أماكن استقرار الإنسان. ومن العوامل الطبيعية المؤثرة في بناء المسكن هو المناخ، حيث نجد أَنَّ الظُّروفَ المناخية من حرارة ومطر ورطوبة وثلوج تؤثر في التجمعات الإنسانية، وبالتالي في أنماط حياتهم منذ العصور القديمة حيث لا مفر من الخضوع لأحكام الطبيعة، وبالتالي فإَن عمليات التأقلم العمران مع الظروف المناخية ساعدت في خلق طابع خاص للمستقرات العمرانية للجماعة كما أثَـرت على الشكل العام للمسكن نفسه. (عفيفي، 2022: ص159).

وهذا بداء واضحاً بمنطقة الزنتان حيت أَثَـــرَتِ البيئة الجبلية المنحدرة، والتُّربة الطِّينية الصلبة، وقسوة الجو من برد وحرارة وتوفر المواد الطبيعية المتاحة محلياً على نوع المسكن وتشكيله، واختيار سكانها بيوت الحفر (الدواميس) كمأوي.

الصورة رقم (2) توضح الطبيعة الجبلية لمدينة الزنتان

المصدر: https://www.google.com/search?q

2- العوامل الاقتصادية المؤثرة في بناء المسكن: تسهم العوامل الاقتصادية في صياغة وتشكيل طبيعة المسكن الَّذي ينشأ في ظِلِّ مجتمعٍ يعتمد على الصّيد يختلف عن طبيعة المسكن الَذي ينشأ في ظلِّ مجتمعٍ يعتمد على الرعي أو يعتمد على الزراعة، وكذلك يختلف عن المسكن الّذي ينشأ في مجتمع يعتمد على الصناعة أو يعتمد على التجارة. ولذلك تعتبر المحددات الاقتصادية من أهم المحددات والعوامل الَّتي تؤثر في تشكيل

العمران بصورة مباشرة، أي أنَّ النتاج البنائي له محددات اقتصادية مهمّة مِنْ حَيْثُ التَّمويلُ الماديُّ لعمليات البناء والتشييد ويمكن القول بأنَّ المسكن هو انعكاس للمستوى الاقتصادي والاجتماعي التي تعيش فيه الأسرة، حيث نجد كلما كانت الأسرة ذات مستوى اقتصادي مرتفع يظهر ذلك على المسكن من خلال مواد البناء ومحتويات المسكن.(عفيفي، 2022: ص160).

وهذا ما شاهده الباحث من خلال بحثه لوجود أنواع من البيوت التقليدية بمنطقة الدّراسة بَيْنَ بيوتٍ صغيرةٍ وبيوتٍ متوسطةٍ وأُخْرَى كبيرة، وكذلك بيوت حفر وبيوت بنيت بالأحجار والجبس.

3- العوامل الاجتماعية والثقافية: تلعب المحددات الاجتماعية في إطار المجتمع دوراً كبيراً في طريقة تنظيمهم وتوزيعهم في أشكال الإقامة، فدراسة المجتمعات المحلية الصغيرة تشر إلى أنَّ التنظيمات الَّتي يقوم عليها توزيع السكان داخل كل وحدة من وحداته تتبع بُعْدًا بنائياً يفصل بَيْنَ الزمر الاجتماعية، فليس من شَكٍّ في أَنَّ القيم الاجتماعية المختلفة الَّتي تتعلق بموطن الإقامة والسكن ومبدآ القرابة واختلاف الجنس والسن تلعب دوراً مهمًّا في أُسُسِ التَّمييز بَيْنَ الجماعات المختلفة وتقسيمها، بل إنَّ توزيع المساكن داخل القسم الإقليمي الواحد كثيراً ما يتبع مبدأ درجة القرابة بحيث إنَّه كُلَّمَا قويت العلاقات والروابط ذات القرابة بَيْنَ الجماعات العائلية المتقاربة مساكنهم أو المتجاورة الَّذين عَاشُوا بجوار بعضهم بعض كي يكونوا في حالة تماسك اجتماعي. ولذلك نجد أَنَّه إذا كان المسكن وتنظيمه الداخلي يُعَدُّ تعبيراً عن ثقافة المجتمع وما تنطوي عليه من قيم وأنماط معيشية معينة وتنظيم اجتماعي معين، فإنَّ ذلك يعي – من ناحية أخرى – ضرورة توافق بيئة المسكن مع ما تحمله هذه الثقافة من قيم اجتماعية واقتصادية.

وهذا ما تمَّ ملاحظته من خلال إنشاءِ المسكن التقليدي وتكوينه وما سمعه الباحث من الإخباريين، فملكية الأرض في مدينة الزنتان ملكية قبلية وهذا ما جعل توزيع المساكن وتقاربها يكون على أساس القرابة العائلية والقبلية، وليس كما سادَ اليوم من وجود تكتُّلاتٍ سُكانيَّة مختلطة من جميع قبائل الزنتان وعائلاتها.

ويتأثر المسكن من حيث الشَّكْلُ والحجمُ والتَّرتيبُ بما يطرأ على الأسرة من تغير، سواء كان هذا التَّغير على مستوى حجم الأسرة نتيجة دخول أعضاء جدد، أو

تنوع وتجدد احتياجات الأسرة من الوحدة المعيشية، فالتغيرات الاجتماعية والاقتصادية –على سبيل المثال – قد تؤدي إلى زيادة تطلعات الأسرة واحتياجاتها.

إنَّ نَمَطَ المسكن يتأثر كثيراً بثقافة سكانه؛ لأَنَّ كُلَّ ثقافة تترجم سلوكَ جماعتها والَّذي ينعكس من حال عملية التطبع الاجتماعي على مظهر المسكن؛ لأَنَّ قواعدَ السُّلوك تعدُّ معايير ثقافية للأفراد الذين ينتمون إلى ثقافة معينة، حيث يشعرون بقوة بالانتماء للمعايير والقواعد الخاصة بتلك الثقافة، وإنَّ عدم المقدرة على التعايش مع المعاير ينتج عنه رد فعل سلبية للمجتمع.

ويمكن القول بأنَّ هناك ثلاثة مستويات للثقافة توضح تأثر الثقافة على المسكن وهما مستوى المعارف والعلوم، ومستوى العادات والتقاليد، ومستوى المعتقدات وتشتمل المحددات الاجتماعية والثقافية من وجهة نظر (رابوبورت) على المعتقدات العقائدية والتركيب الأسري والقبلي وظروف ووسائل الحياة.

أ- المعتقدات»Beliefs«: قد وقد وصف» (مارتن لوثر) المسكن بأنَّه: سجل لعقائد المجتمع. وأيضا وصفها (فيكتور هوجر) بأنَّه: هو المرآة التي تنعكس عليها ثقافات الشعوب ونهضتها وتطورها، بمعنى أنَّ المسكن هو صورة المجتمع وهو التاريخ الصحيح الذي لا يخدع ولا يكذب.

ويرى (رابوبورت) أنَّ الأنساق العقائدية والدينية تشكل جانبا حيوياً من ثقافات الجماعات البدائية، وتعدُّ دراسة تأثير هذه الأنساق على عملية تشكيل المسكن مجالًا خصباً لاستقراء العلاقة بَيْنَ ثقافة الجماعة ونتاجها البنائي، باعتبار أَنَّ المسكن هو جزءٌ من النتاج البنائي لتلك المجتمعات. (عفيفي، 2022: ص162).

ومن المعتقدات السائدة في بناء البيت التقليدي بمنطقة البحث فتح باب البيت اتجاه الشّرق، كما لاحظ الباحث وجود علامات للزينة كاليد (الخميسة) التي كانت تستخدم كما يعتقد لإبعاد العين والحسد، وبعض النقوش على شكل vvvvv ويطلق عليها (بور جمل)، وهذه تدل على مشاعر وأحاسيس ومعتقدات سكانها.

الصورة رقم (3) توضح النقوش على جدران بيت تقليدي

المصدر: تصوير الباحث خلال الدراسة الميدانية

ب- التركيب الأسري أو القبليInstallation of prisoners or tribal : إنَّ التركيب الأسري والقبلي من العوامل الَّتي تؤثر بصورة واضحة على عملية التشكيل العمراني للمجتمعات التقليدية، فتدرُّج العلاقة بَيْنَ أفراد الجماعة له تأثيره المباشر على عملية تشكيل المنزل واختيار موقعه، وهو ما نلمسه عند المقارنة بين العديد من الجماعات المختلفة في الهيكل الاجتماعي أو حتى المقارنة بَيْنَ منزلين متجاورين في نفس الجماعة، نتيجة اختلاف التركيب الأسري أو القبلي والأمثلة كثرة على ذلك خاصة في المجتمعات الإفريقية حيث نجد أَنَّ الأسرة الممتدة تعدُّ أحد السِّمات المميزة للمجتمعات الإفريقية التقليدية، وكذلك الروابط الأسرية بين أفراد العائلة من الروابط التي يحرص عليها الأفراد ضمن مجموعة من التقاليد الصارمة والمتوارثة عَبرَ الأجيال.

إذًا يمكنني القول أنَّ العلاقة الوثيقة بَيْنَ المسكن والتَّركيب الأسري تُعَدُّ مِنْ أَهَمِّ المحددات الَّتي تؤثر في شكل وبناء المسكن لدى المجتمعات الإنسانية بأشكالها المختلفة كافة، حيث نجد أَنَّ شكلَ الأسرة وعددَهَا يَلْعَبَانِ دوراً مُهِمًّا في شكل المسكن فمثلاً الأسرة النووية لا تحتاج إلى منزل ذي حجم كبر ويكفيها مسكن صغير.(عفيفي، 2022: ص163).

ومن الملاحظات بمجتمع البحث تأثير العامل القبلي، والملكية القبلية للأرض على تشكيل التجمعات السكانية، ومواقع البيوت التقليدية، فنجد العائلات التي تربطها علاقات اجتماعية وقرابة، وأفراد القبيلة الواحدة يشكلون تجمع سكاني واحد، بعكس ما موجود اليوم من إنشاء تجمعات سكانية حديثة بمنطقة البحث، حيث الاختلاط بين العائلات والأسر والقبائل، وانتشار المقسمات السكانية وبيع الأراضي القبلية.

ج- مستوى العلوم والمعارف: يمكن معرفة مستوى العلوم والمعارف في الثقافة إلى التكنولوجيا، مما لاشك فيه أَنَّ هذا المستوى له تأثير كبير على المسكن ؛ لأَنَّه يسْهِمُ في تحديد تقنية البناء والمواد المستخدمة في عملية البناء وأيضاً يتحكم مستوى العلوم والمعارف في أسلوب الإنشاء ، فكلُّ هذه العناصر تتحكم فيها التكنولوجيا المتاحة.

د- مستوى العادات والتقاليد: تنعكس العادات والتقاليد على المسكن حيث تتبلور على شكل طرز وأعراف بنائية تمت صياغتها عبر الزمن، فمثلا قد تفرض العادات والتقاليد درجة معينة من الخصوصية تتبلور هذه الخصوصية في المسكن على شكل معالجات خاصة للمداخل والفتحات، ويصير هذا عرفاً مستخدما عند بناء المسكن يستمر لأجيال ويحقق نوعًا من التواصل والتجانس بين المساكن الموجودة في المجتمع كافةً ، ويكون مرجع التشابه بين المساكن هو وحدة العادات والتقاليد والأعراف الحالة. فالعادات والتقاليد هي الجانب المعنوي من الثقافة وتأثير هذا الجانب على المسكن يكون واضحاً أكثر في المجتمعات ذات العلاقات القرابية القوية، والمناطق التي تأخذ طابعا متميزاً منها المناطق التي تتمتع بالانعزال مثل المجتمعات الصحراوية حيث إنَّ العادات والتقاليد تفرض إقامة المسكن بشكل معين وبطريقة معينة. (عفيفي، 2022: ص164).

أنواع المسكن التقليدي بمدينة الزنتان:

أولاً- بيوت الحفر (الدواميس):

1- بيت الحفر بالسقيفة: من منطلق الإنسان مبدع ومفكر بطبعه وفطرته فلقد عرف الهندسة وفن العمارة والتنمية المستدامة منذ الأف السنين دون دراستها بالمعاهد والجامعات، وأجبرته الطبيعة على الابتكار والاختراع وفعلاً نجح في ذلك وحافظ على الوجود البشري، ويحفر بيت السقيفة في حال العائلة الكبيرة أو الأسرة الممتدة، فبعد اختيار المكان المناسب الَّذي سيتم به الحفر وغالباً ما يحبذ اتجاه الباب نحو الشرق، والأرض منحدرة وهي الأنسب فكلما زاد انحدار الأرض قل انحدار السقيفة، وكلما كان

المكان منبسط زاد انحدار السقيفة، وقد يصل طول السقيفة إلى عشرة أمتار أو أكثر، وعرضها من مترين إلى ثلاثة أمتار، وقد تزيد أو تنقص وذلك لاستخدامها في تخزين الشعير والقمح، أو حفظ الحيوانات من البرد والحرّ والسَّرقة، وقد تكون بها أعتاب، وقد تكون السقيفة مستقيمة وقد تكون فيها زوايا، وبعد ذلك يتمُّ حفر وسط الحوش - ومن المحتمل حفر وسط الحوش قبل السقيفة – ويدل على ذلك وضع التربة في أعلى وسط الحوش لحمايته من الأمطار، وغالباً ما يأخذ وسط الحوش شكل مربع ويكون عرضه وطوله حسب عدد الدواميس المراد حفرها واحتياج العائلة، وقد يصل عمقه إلى ستة أمتار، حسب نوع الأرض وقوتها، و ويحتوي وسط الحوش عن (مطمور) لتجميع مياه الأمطار، وقد يكون به غرف مرتفعة لتخزين الغداء تسمى (الغرفة:)، ويتمُّ حفر الدواميس حسب عدد أفراد العائلة وحاجتها وإمكانياتها، والداموس قد يصل طوله إلى خمسة أو ستة أمتار أو يزيد، وعرضه إلي ثلاثة أمتار، وارتفاعه إلى مترين أو أكثر، وتحفر بالداموس أرفف لوضع الأشياء تسمى (ركابة)، وغالباً ما تسمَّى الدواميس بأصحابها، أو بوظائفها كالمطبخ، وداموس الخزين، داموس الشعير، داموس التبن، داموس الحصان ..... وغيرها.

وقد أورد الرحالة الفرنسي دي ماثيسيو . DE MATHUISIEULX الذي زار منطقة غريان سنة 1901 ونشر كتابه عن رحلته في طرابلس الغرب سنة 1903 فيقول: " كُلَّ أهل غريان من سكان الكهوف، فليس هناك قرى ظاهرة للعيان بجانب القصر، وبدل أَنْ تخرج البيوت من التربة إلى أعلى تدخل فيها بالحفر.... يسكن المواطنون المحليون .... منذ قرون فيما يشبه الخزانات الأرضية المربعة، في حيطانها أبواب تؤدي إلى حجرات. وأعتاب هذه الأبواب على مستوى قاع الحفر العمودي، وهو نوع من الفناء على عمق 6 إلى 8 أمتار تحت حقول الشعير وأشجار التين. ويتم النزول إلى بيوت الحفر هذه عن طريق مدخل شيد فوق سطح الأرض، وبعد الولوج فيه تجد بداية أرضية السقيفة التي تقف بجذوع الزيتون ثم الجزء المحفور منها في الأرض بانحدار تدريجي يؤدي إلى الفناء الداخلي للبيت، وعادة ما تحفر بشكل منحنى لتوفر الخصوصية لأهل البيت وتحد من تسرب الأتربة والغبار إليه والتي تحملها التيارات الهوائية.(حامد، 2015).

الصورة رقم (4) توضح بيت السقيفة (دواميس) مع ما يسمى الغرف

المصدر: تصوير الباحث خلال الدراسة الميدانية

الصورة رقم (5) توضح السقيفة مدخل البيت التقليدي

المصدر: تصوير الباحث خلال الدراسة الميدانية

2- بيت الحفر (الفصيل): يتمُّ حفر فصيل أو وسط حوش بشكل مربع أو مستطيل ناقص ضلع أو نص ضلع، وقد يكون عل شكل نص دائرة، وغالباً ما يكون في أرض منحدرة، ويحدد ارتفاعه بقوة الأرض وتماسكها، ويحدد طوله وعرضه بعدد الدواميس التي سيتم حفرها، أي من خلال عدد الأسر التي ستسكن هذا البيت، وتحفر فيه الدواميس التي تكون أبوابها مباشرة للضوء والهواء وبدون مدخل (السقيفة).

الصورة رقم (6) توضح بيوت الحفر (الفصيل)

المصدر: تصوير الباحث خلال الدراسة الميدانية

3- الداموس الفردي: يتمُّ حفره للأسرة الصغيرة، والظروف الاقتصادية للفرد، ويكون بابه لا يقابله أي أبواب، وغالباً ما يأخذ الحفر الانحدار التدريجي وتكون بمدخل الباب عتبة، وغالباً ما يتم سقف مدخل الداموس بأغصان أشجار الزيتون أو النخيل، لتوفرها محلياً وقوتها في مقاومة الظروف الطبيعية، وردمها بالتراب، أو إحاطته بصيرة من الأحجار لحمايته من الماء، ومازلت موجودة إلى تاريخ إعداد هذه الدراسة رغم مرور مئات السنين، كذلك تصنع أبواب الداموس من صواري النخل وتسمَّى (الضلفة)، وتربط بالعرض بأعواد من الزيتون وكذلك قاعدة الفتح، وقفل الباب ويسمَّى (العراضة)، وغالبا ما يوجد بالداموس حفر (ركابة) تستخدم لوضع الأشياء.

الصورة رقم (7-8-9) توضح بيت الحفر (الفردي)

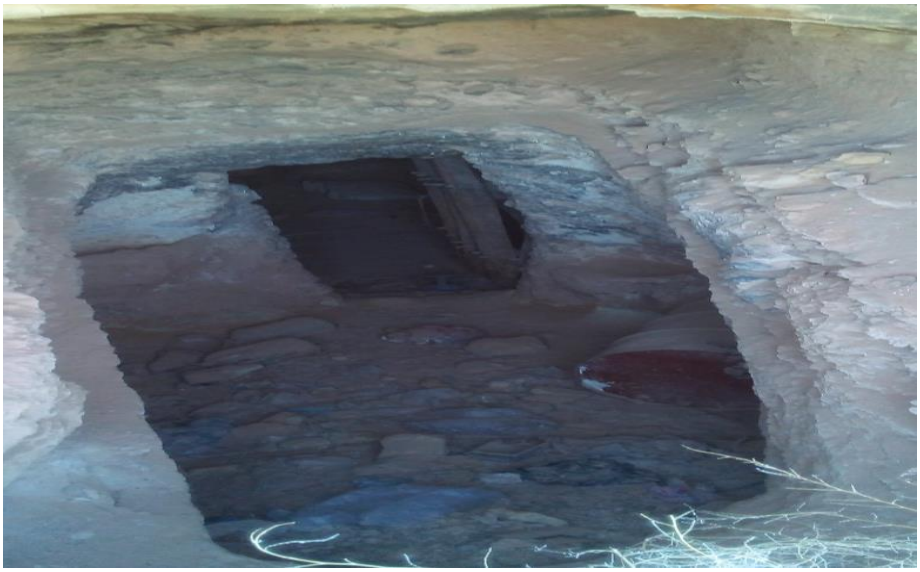

المصدر: تصوير الباحث خلال الدراسة الميدانية

المصدر: تصوير الباحث خلال الدراسة الميدانية

4- القرير: بيت حفر ليس بالعميق قريب من سطح الأرض على شكل دائري به حفر (دواميس) متوسطة، يستخدم للسكن والاحتماء من حرارة الشمس والبرد وحفظ الحيوانات، يتم حفره بالمناطق الزراعية أو الرعوية.

5- البيت المبني بالأحجار والجبس أو الطين: باعتبار المنطقة جبلية وتتوفر فيها الأحجار فقد استغل السكان هذه الأحجار في بناء بيوتهم، وكان البناء يتم من خلال استخدام الجبس الَّذي يجلب من الكهوف ويتمُّ حرقة وتكسيره، ويخلط بالرمل، وكذلك تستخدم الحجار في سقف البيوت من خلال ما يسمى الكمر، أي على شكر نص دائري (الطراز الإسلامي)، أو من خلال استخدام صواري الزيتون والنخيل، وفي بعض المنازل قد تم بناء دور ثاني، إلاَّ أَنَّ مساحة الغرفات كانت صغيرة، وما زالت موجودة إلى اليوم، رغم تعرضها للإهمال.

الصورة رقم (10-11) توضح البيت التقليدي المبني بالأحجار والجبس

المصدر: تصوير الباحث خلال الدراسة الميدانية

4- التنمية المستدامة: اغلب الرؤى ووجهات النَّظر الَّتي ظهرت لتحديد مفهوم التنمية المستدامة جاءت لتؤكد أَنَّ التنمية المستديمة إلى جانب كونها قضية تنموية وبيئية فهي قضية أخلاقية مصيرية ومستقبلية. وقد بدأ هذا المفهوم بالظهور في الأدبيات التنموية

في أواسط الثمانينات من القرن العشرين تحت تأثير اهتمامات الحفاظ على البيئة وبسبب تكاثر الأحداث المسيئة للبيئة وارتفاع مستويات التلوث في العالم. (الفحل، 2023: ص160)

وتشير الوكالة العالمية للبيئة والتنمية إلى أَنَّها: (التنمية الَّتي تواجه احتياجات الأفراد الراهنة دُونَ الإنقاص من قدرة الأجيال المقبلة على مواجهة احتياجاتهم).

أما ادوارد باربر وهو من المفكرين الاقتصاديين فهو أَوَّلُ مَنْ تَنَاوَلَ مفهومَ التنمية المستدامة، وعرفها بأنَّها: (نشاط اقتصادي يؤدِّي إلى علو الرفاهية الاجتماعية مع قدر كبير من العرض للموارد الطبيعية المتاحة وبأقل قدر ممكن من الأضرار والإساءة للبيئة).(التميمي، الساعدي، 2020: ص174).

ويعرّفُها مؤتمر الأُمَمِ المتّحدة للبيئة والتنمية ريو دي جانيرو 1992 بأنها: (إدارة الموارد الاقتصادية بطريقة تحافظ على الموارد والبيئة أو تحسيها لكي تمكن الأجيال المقبلة مِنْ أَنْ تعيشَ حياةً كريمة أفضل). (عياش، نوار، 2018: ص27).

وتعرف اللجنة الاستشاري للتكنولوجيا الزراعة المستدامة (المتواصلة) بأنها: (الإدارة الناجحة لموارد الزراعة للوفاء بالاحتياجات المتغيرة للإنسان مع المحافظة على نوعية البيئة أو تحسينها وصيانة الموارد الطبيعية).(عبد السلام، 1998: ص155).

ثامناً- استخلاص نتائج الدراسة: لقد أدرك الأجداد التنمية المستدامة بأبعادها المختلفة بالفطرة والعقل والتجربة فلم يكن هناك مدارس أو معاهد أو جامعات علمتهم ، ولذلك يمكن تحديد العلاقة بين البيت التقليدي والتنمية المستدامة من خلال الأبعاد التالية:

1- البعد الفكري والمعرفي: مازالت فكرة حفر الدواميس واردة عند الكثير من أبناء الزنتان، وقام بعضُهم بالفعل بحفر دواميس أو صيانة الدواميس القديمة، وتجهيزها بالكهرباء والماء والمرافق الصحية، وذلك للمعرفة السَّابقة بفائدتها من حيثُ تميزُها بالبرودة في الصيف والدفء بالشِّتاء، كما أَنَّ هناك العديد من البحوث والدراسات والرسائل العلمية على بيوت الحفر.

2- البعد الإنساني (البشري): ركز الأجداد من خلال تخطيط وبناء البيت التقليدي على الحفاظ على الجنس البشري باعتباره الثروة الحقيقية للبلاد، حيث حقق البيت التقليدي

الأمن الإنساني والبشري من خلال حمايته للبشر من برد الشتاء، وحرارة الصيف، وفي الوقت الذي كانت البلاد تفتقد فيه للرعاية الصحية، ونقص الغذاء والدواء.

3- البعد الاجتماعي والثقافي: من خلال تصميم البيت التقليدي وموقعه الذي كان يرتبط بملكية الأرض القبلية ساعد هذا الواقع على عملية الضبط المجتمعي للأفراد ومتابعة سلوكهم، كما حافظ البيت التقليدي على القيم الأخلاقية، والعادات والتقاليد الاجتماعية التي تجسد التنمية المستدامة الإنسانية في أجمل صورها، من خلال التكيف الاجتماعي، والصبر، الرضا بالقليل، والعدالة في التوزيع، والاحترام، وضبط الحريات، والمتابعة والحماية من الأخطار، وتحقيق الأمن الإنساني والنفسي والصحي وغيرها من القيم التي نشأة داخل البيت التقليدي وحافظ عليها من خلال التربية والتوجيه والإدارة الاجتماعية الحكيمة.

وهذا ما أشارت إلية رانية غناي في دراستها عن المسكن التقليدي بقصر غرداية وقصر بريان "فالمسكن التقليدي في المنطقتين بمثابة فضاء كبير له نظام خاص تخضع له كلُّ الأسر بحيثُ ينسجمون فيه معا ويشكلون أسرةً واحدةً وموحدةً، وقد صُمِّمَ هذا المسكن من قبل أفراده على نحو يستجيب للحاجات التقليدية للأسرة ويحميها من كُلِّ أنواع المخاطر الخارجية، كما يلعب دوراً مهمًّا في التّماسك الأسري وتقوية العلاقات الاجتماعية محققا بذلك الأمان الاجتماعي ومحافظاً على قدسية الحياة الاجتماعية فيه مشكلًا عنصر ربط وهمزة وصل بين أعضائها ووحدة أساسية في استمرار وتماسك شبكة العلاقات ورغم كُلّ التغير الحاصل في حَيّز المساكن الَّذي فُرِضَ على الأسرة إلّا أنّها بقيت متمسكة بقيمها وتقاليدها". (غناي، 2021).

ورغم ظلمت وضيق ووحشة بيوت الحفر وعدم توفر الإضاءة والمرافق الصحية بها كان الانتماء للمكان والأرض والشجر أكبر فتحمل أصحاب الأرض كل الظروف والصعوبات للمحافظة عليها وعلى أشجارها ونمط العيش بها، على الرغم من توفر الرفاهية في المدن. وفي حديث مع الشيخ الطاهر القمودي رحمه الله قال: (كنا ندرس بمدرسة مقيريسة وقدم أحد الأساتذة من المدينة، وطلب من الإدارة توفير سكن، فتم تسكينه في (داموس) وفي اليوم التالي لم يأتِ للمدرسة فذهب العاملين بالمدرسة لمعرفة السبب فوجدوا المعلم غادر المنطقة وترك ورقة بالداموس مكتوب فيها: (داموس من الطينِ. مسكن مساكينِ. به أبو كشاش وثعابينِ).

كما مازالت بيوت الحفر (الدواميس) رمز للبطولة والجهاد والدفاع عن الوطن، كداموس الشهداء العشرة، وتقام فيها المعارض والمهرجات والاجتماعات كداموس الشارف، وأبودربالة، والعيساوي.

الصورة رقم (12) توضح أحد المهرجات المقامة بمنطقة الشارف

المصدر: https://www.google.com/search?q

الصورة رقم (13-14) توضح بيت حفر تم تحويله لمعرض للمقتنيات الشعبية

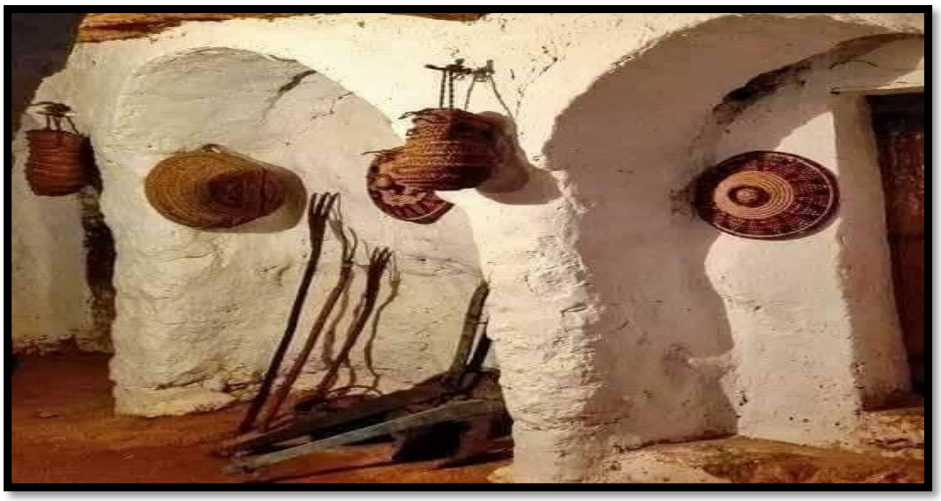

المصدر: https://www.google.com/search?q

4- البعد البيئي والاقتصادي: صادف فكرة بناء البيت التقليدي بالزنتان مرور البلاد بحالة اقتصادية متردية، وانتشار الفقر وندرة مصادر المياه، وقسوة الحياة، ومع ذلك ابتكر الأجداد الطرق للحفاظ على استمرار الحياة بالمنطقة، واستمرار وجودهم دون المساس بالحاجات المستقبلية للأجيال القادمة، وذلك من استغلال الموارد المتوفرة محلياً في الحفر والبناء، وتقسيم العمل، حيث كانت العائلة والأقارب يقيمون بمنزل مشترك وكان كبير السن الَّذي يمتلك الحكمة هو من يقوم بتوزيع ما يحتاجه أهل البيت من الطعام وبيده النقود، كما حافظ الأجداد على الأراضي الزراعية فالبيت التقليدي (بيت الحفر) مقام تحت الأرض لا يحتاج لحيز كبير من الأرض، كما يتمُّ حفره بالمنحدرات بعيداً على الأراضي الزراعية، ونتيجة لذلك حافظ الأجداد على أشجار الزيتون والتين والنخيل الَّتي كان عمرها مئات السنين، بعكس ما عليه الحال اليوم من تدمير لغابات الزيتون والتين وتحويلها إلى كتل خرسانية. كما استخدم الأجداد الموارد الطبيعية المحلية في بيوتهم التقليدية من أغصان الزيتون وصواري النخيل والجبس والحجارة والطين مما أدى إلى المحافظة على البيئة من التلوث.

5- البعد الإنشائي والمعماري: لقد حملت فكرة البيت التقليدي الاستدامة، فجمع إنشاء وتصميم البيوت التقليدية بين الجمال والمتانة والاقتصاد في التكاليف ومراعاة راحة السَّاكن، وعلى الرغم من مرور مئات السنين على حفر الدواميس وبناء البيوت بالحجر والجبس، مازالت هذه البيوت صامدة أمام الظروف الطبيعية، وذلك لاختيار مواد جيدة في البناء، فعلى سبيل المثال نجد أبواب بيوت الحفر المصنوعة من صواري النخيل وأغصان الزيتون على طبيعتها، والأسقف ثابتة، مع ملاحظة مباني شيدت حديثاً

وتعرضت للتشقق والانهيار، كما عمل بعض الأفراد على صيانة أو حفر بيوت (دواميس) يستجير بها من حرارة الصيف، والتدفئة من برد الشتاء.

وقد دلت الدراسات التي أجريت عن بيوت الحفر في منطقة الجبل الغربي أنَّ درجة الحرارة والرطوبة بها قد سجلت طوال أسبوع الصيف درجة حرارة شبه ثابتة (27°) ورطوبة نسبية (30-40%) وقد سجلت درجة حرارة (18°) ورطوبة نسبية (40%) طـــوال أيـــام الشتاء. وهي درجات حرارة ورطوبة مناسبة توفر الراحة للأهالي، مع العلم أنَّ درجة الحرارة في فصل الصيف بالمنطقة عادة ما تكون في منتصف الثلاثينيات أمَّا في ليالي فصل الشتاء فتكون في بعض الأحيان ما دون الصفر. واستعمل بعض ممَّا تبقى من بيوت الحفر القديمة (الدواميس) .... بمثابة استراحة مؤقتة وفراراً من الحرارة المرتفعة في الأبنية الحديثة في الأيام الَّتي ترتفع فيها الحرارة في فصل الصيف، كما وضفت بعض هذه البيوت لتكون بؤرا لجذب السياح للتعرف على نمط حياة السكان بالمنطقة في مراحل تاريخية مختلفة.(حامد، 2015).

التوصيات والمقترحات

1- الاهتمام بالبيت التقليدي باعتباره موروث مادي وفكري، ورمز من رموز الهوية والأصالة الثقافية.

2- وضع التشريعات والقوانين اللازمة لحماية البيوت التقليدية، وتقديم المساعدات لصيانتها.

3- دعوة وزارة السياحة ووزارة الثقافة للاهتمام بالبيت التقليدي، واستغلالها كمراكز سياحية وثقافية.

4- تسليط الضوء إعلامياً على البيت التقليدي، وإبراز الدور الفكري والمعماري والاجتماعي للأجداد للربط بين الماضي والحاضر والمستقبل.

5- توعية الناس عبر وسائل الإعلام المختلفة بالمحافظة على البيوت التقليدية.

6- إجراء مزيد من الدراسات والبحوث والندوات والمؤتمرات على البيوت التقليدية كموروث شعبي.

المراجع

أولاً- القران الكريم

ثانياً- الكتب

1- أبو شعيرة، خالد محمد غباري & ثائر، أحمد. (2015م). الثقافة وعناصرها، الإعصار ومكتبة المجتمع العربي للنشر والتوزيع.

2- التميمي، رائد رمثان حسين & الساعدي، حسن حيال محيسن. (2020م). التنمية التعليمية المستدامة، دار صفاء.

3- العليان، خالد بن أحمد، البيوت القديمة في محافظة ظفار، المطابع العلمية.

4- النجار، محمد محمد. (2001). في مسألتي التخلف والتنمية، ب د ن.

5- شعبان، سعاد علي. (2004م). الانثروبولوجيا الثقافية لأفريقيا، معهد البحوث والدراسات الأفريقية.

ثالثاً- الدوريات

1- الثقفي، عبد الله زاهر. (2021). عمارة المنزل التقليدي في بلاد ثقيف. مجلة كلية اللغة العربية، العدد(39).

2- الضبيع، أبتسام عمر. (2021م). التراث العمراني كنوز تستدعي الاهتمام والدراسة (بيوت الحفر في مديهة غريان أنموذجاً). مجلة ليبيا للدراسات الجغرافية، العدد الأول.

3- الزكراني، خليل حسن. (2014). عمارة البيت الشعبي العراقي، مجلة الثقافة الشعبية، الثقافة الشعبية للدراسات والبحوث، العدد (25).

4- الفحل، عباس مفرج. (2023). التنمية المستدامة. مجلة دراسات البصرة، جامعة البصرة، مج (18)، العدد (48).

5- عبد السلام، ريمة محمد السيد. (1998). الأمن الغذائي للوطن العربي، سلسلة كتب عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، العدد(230).

6- القليوبي، هاني أحمد محمد. (2022). سمات عمارة المسكن التقليدي في بلاد الجريد التونسي. مجلة الاتحاد العام للأثريين العرب، المجلد (23)، العدد (2).

7- سعد، علي منصور علي. (2025). أثر العامل الطبوغرافي في تطور أنماط السكن بإقليم الجبل الغربي. مجلة ليبيا للدراسات الجغرافية، الجمعية الجغرافية الليبية المنطقة الوسطى، المجلد الخامس، العدد الأول.

8- عفيفي، محمد مسعد إمام. (2022). المسكن التقليدي بمنطقة المحس بالسودان. مجلة الثقافة الشعبية، الربيع، الثقافة الشعبية للدراسات والبحوث، البحرين، العدد (57).

9- فؤاد، بوزيد. (2014م). المسكن التقليدي بمنطقة حوض الصومام. مجلة آثار، العدد (11).

10- ناجي، بسام وز. (2019م). الرواسب الثقافية ومظاهر التخلف في المجتمع الجزائري. مجلة أنثروبولوجيا، مركز فاعلون، مجلد 05، العدد (10).

رابعاً- الرسائل العلمية

1- بن عياش، ر، & نوار. ا. (2019). آثر التغيرات المناخية على اقتصاديات الدول العربية. جامعة محمد الصديق بن يحي جيجل.

2- غناي، رانية. (2021). المسكن التقليدي بقصر غرداية وقصر بريان دراسة تحليلية مقارنة. جامعة زيان عاشور.

خامساً- مواقع الإنترنت

1- حـامد، س.(2015). https://mirathlibya.blogspot.com/2015/12/blog-post_25.html

2 - https://www.facebook.com/alkhabirmed/posts/AA/943083201311571/. (2026).

3- https://www.facebook.com/banisalemgroup/photos. (2026).